

# الغفلة عن الغيب في القرآن الكريم

محمد بن داود تمزغين

ماجستير في التفسير الموضوعي

كثيراً ما يركّز القرآن الكريم على الغيب وأهمية الشعور به حياة الإنسان، فذلك ما يجعل الإنسان ينظر إلى الزمن له ما ض وآت وحاضر، فلا يغترّ بتلك اللحظات التي يعيشها أو يقف عندها، بل يوازن مع الماضي، ويستهدف المستقبل. بل إنّ الإنسان إن توقّف عند عالم الشهادة صار محدوداً ضعيفاً، خائر العزيمة، ثمّ إنّّه لن يفهم الحياة على حقيقتها ولكن ظاهراً منها، بينما يخفى عنه ظواهر أخرى منها، وما يأتي بعدها من الآخرة أشدّ وأعظم: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ. يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: 6-7].

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الموضوع وأعطى لهذا الجانب أهمية كبيرة، إضافة إلى أهمية الموضوع في حياة الإنسان، وهذا ما حدا بالدراسة إلى تناول هذا الموضوع وذلك من خلال المحاور الآتية:

- معنى الغفلة.
- الغيب والغفلة عنه من خلال القرآن الكريم.
- آثار الغفلة عن الغيب من خلال القرآن الكريم.
- فرعون وقومه نموذج للغافلين عن الغيب.

- معنى الغفلة:

ترد مفردة الغفلة بمعنى السهو وعدم التفطن، فيقال: "غَفَلَ عنه يَغْفُلُ غُفُولاً وأَغْفَلَهُ: تركه وسَهَا عنه" (1).

وترد الغفلة بمعنى الستر، فيقال: "غَفَلَ الشيء: سَتَرَهُ" (2)، وتأتي أيضا بمعنى الترك، فيقال: "غَفَلَ عنه تركه" (3).

فالغفلة في اللغة تطلق على ثلاثة معان هي: السهو وعدم التفطن، والاستتار، والترك. ويمكن استخراج العلاقة بين هذه المعاني الثلاثة، فالغفلة في أصلها عدم تفطن وانتباه، وذلك لاستتار المفعول عنه؛ إذ لا علامة ولا أثر، وكأنَّ المفعول عنه مستتر لا يظهر فلا يميّزه عن غيره شيء، ويلزم عن عدم التفطن ترك المفعول عنه" (4).

وقد عرّفت الغفلة في اصطلاح القرآن تعريفات متعدّدة، مثل تعريفها بأنها: "عدم الشعور بما يحقّ الشعور به" (5). أو "انقفاء العلم لعدم توجّه ذهن إلى المعلوم" (6).

ولعلَّ أحسن تعريف لها أنها ضدّ الشهود، وأنها: "عدم شهود ما ينبغي شهوده لأهمّيته أو حضوره" (7). وذلك لارتباطها بالمهم في حياة الإنسان، مما يعدّ الغفلة عنه تقصيرا لا مجرد سهو وقلة تفطن، وذلك ما يورث بالتبع آثارا سلبية.

- الغيب والغفلة عنه من خلال القرآن الكريم:

أبرز مجال كثر ورود الغفلة فيه هو عالم الغيب، فقد ورد ذلك في عشرين آية (20) من خمس وثلاثين آية وردت مفردة الغفلة فيها. وكان التركيز على عالم الغيب ممثلا في حضور الله تعالى وقيوميته، وثبوت الآخرة، ودلالة الآيات على عالم الغيب.

1- الغفلة عن آيات الله تعالى:

فقد يسرّ الله لهذا الإنسان التعرّف إليه تعالى وشهوده، بيّن الآيات في الآفاق وفي نفسه، وبعث إليه الرسل بالآيات التي تدل على حضوره تعالى في حياة الإنسان، إلا أنَّ الغافل لم يشهد دلالة الآيات رغم تنوعها.

فبثَّ تعالى آياته في الآفاق، لكن الذين لا يرجون لقاءه غفلوا عنها، يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: آيات 5-6]

فلم تكن التقوى منهم ولا العلم، بل كانوا لا يرجون لقاءه تعالى ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأْنَأُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ [يونس: آية 7].

يقول رشيد رضا في معنى الآية: "عن آياتنا غافلون، فلا يتدبرون المنزلة منها على رسولنا، وما فيها من المواعظ والعبر، والمعارف والحكم، ولا يتفكرون في الكونية وما تدلّ عليه من حكمته وسننه في خلقه، وما يقتضيه كلّ منهما من الجهاد وصالح الأعمال" [8].

ويقول ابن عاشور عن الآية: "استئناف وعيد للذين لم يؤمنوا بالبعث، ولا فكروا في الحياة الآخرة، ولم ينظروا في الآيات، نشأ [الاستئناف] عن الاستدلال على ما كفروا به من ذلك، جمعا بين الاستدلال المناسب لأهل العقول، وبين الوعيد المناسب للمعرضين عن الحق" [9].

وأظهر الله تعالى للإنسان آيات في نفسه ودلائل على هذا الغيب الشاهد في حياته، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الروم: آية 7-8].

يقول ابن عجيبة: "أولم يتفكروا في أنفسهم، التي هي أقرب إليهم من غيرها، وهم أعلم بأحوالها، فيتدبروا ما أودعها الله تعالى، ظاهراً وباطناً، من غرائب الحكمة الدالة على التدبير من الحكيم القديم، وأنه لا بدّ لها من الانتهاء إلى وقت تجازى فيه، على الإحسان إحساناً، وعلى الإساءة مثلاً" [10].

وأُنزل تعالى آيات الوحي على عباده المرسلين، والمعجزات المصاحبة للرسالة، وأبرز مثال للغفلة عن ذلك فرعون وقومه، فقد غفلوا عن المعجزات التي جاءهم بها موسى عليه السلام، وذكر تعالى موقفهم منها، فقال: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: آية 132]. يقول الرازي: "حكى عنهم في هذه الآية نوعاً آخر من أنواع الجهالة والضلالة، وهو أنهم لم يميزوا بين المعجزات وبين السحر، وجعلوا جملة الآيات مثل انقلاب العصا حية؛ من باب السحر منهم، وقالوا لموسى: إنا لا نقبل شيئاً منها البتة" [11]. فكانت الغفلة سبباً من أسباب إغراقهم: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: آية 136]

فهؤلاء قد استر عنهم جانب الدلالة في الآيات، فهي ظواهر في الآفاق وأحوال للإنسان، لا تدلّ على عالم وراءها غيبي ينبغي أن يشهده الإنسان وآلا يغفل عنه. والآيات هي الدليل إلى الله، فإذا غفل الإنسان عن الدالّ هل يصل إلى المدلول !

## 2- الغفلة عن حضور الله تعالى:

وأكبر ما يصعب على الإنسان أن يهمله هو وجود الله تعالى ووحدانيته [12]، والكون كلّ دلائل على ربوبيته، والأنفس آيات على حكمته، فكيف يسهو الإنسان ويذهل عن ربّه! ولكن من غفل عن الآيات يغفل عن المدلول. ومن آيات الأنفس إلى أخصّ آيات النفس وهي الفطرة في الإنسان، على التوحيد والعبادة، وأبرز وضع تظهر فيه الفطرة تضرّع الإنسان واتّصاله برّبّه في حالة الاحتياج والضرورة.

وقد عبّر القرآن عن هذه الفطرة بالميثاق الفطري، حيث أشهد الله بني آدم على أنّه ربّهم فشهدوا. يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: آية 172].

يقول القطب اطفيش في معنى الآية: "حَذَرَ أَنْ يَقُولُوا (يَوْمَ الْقِيَامَةِ) إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا، أَيْ عَنِ الْمِيثَاقِ الَّذِي أَخَذَ عَلَيْنَا فِي التَّوْحِيدِ (غَافِلِينَ) لَا نَعْرِفُهُ. لَا يَكُونُ لَهُمْ حُجَّةٌ، لِأَنَّهُمْ قَدْ أَخَذَ عَنْهُمْ، وَقِيلَ لَهُمْ: سَتَسُونَهُ وَنَبْعَثُ إِلَيْكُمْ كُتُبًا وَرُسُلًا بِهِ" (13).

فغفلوا بذلك عن ذكر الله تعالى، وخلت قلوبهم من ذكره، مع أنه مغرور في فطرته الاحتياج إليه تعالى، وقد شهدوا على أنفسهم بأنه ربه، وآيات الملكوت عند ناظرهم، فالغفلة عن ربهم أشد من الغفلة عن آياته تعالى.

وهؤلاء قد أغفل الله قلوبهم عن ذكره، فلا أثر فيها لذكر الله، يقول تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾ [الكهف: آية 28].

يقول الرازي: "وقوله: (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه) يدل على أن شر أحوال الإنسان أن يكون قلبه خاليا عن ذكر الحق، ويكون مملوءاً من الهوى الداعي إلى الاشتغال بالخلق" (14).

### 3- الغفلة عن الآخرة:

وبغفلة الغافل عن ربه تعالى وعن دلالة الآيات عليه سبحانه غفل أيضاً عن الآخرة، يقول تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: آيات 6-7].

يقول البيضاوي: "ولكن أكثر الناس لا يعلمون وعده ولا صحة وعده، لجهلهم وعدم تفكيرهم. (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا) ما يشاهدونه منها، والتمتع بزخارفها (وهم عن الآخرة) التي هي غايتها والمقصود منها (هم غافلون) لا تخطر ببالهم... مُنَادٍ عَلَى تَمَكُّنِ غَفْلَتِهِمْ عَنِ الْآخِرَةِ الْمُحَقَّقةً لِمُقْتَضَى الْجُمْلَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ الْمُبْدَلَةِ مِنْ قَوْلِهِ (لَا يَعْلَمُونَ) تَقْرِيراً لِّجَهَالَتِهِمْ، وَتَشْبِيهاً لَهُمْ بِالْحَيَوَانَاتِ الْمُقْصُورِ إدراكها من الدنيا ببعض ظاهرها، فَإِنَّ مِنَ الْعِلْمِ بِظَاهِرِهَا مَعْرِفَةَ حَقَائِقِهَا، وَصِفَاتِهَا وَخَصَائِصِهَا، وَأَفْعَالِهَا وَأَسْبَابِهَا، وَكَيْفِيَّةَ صُدُورِهَا مِنْهَا، وَكَيْفِيَّةَ التَّصَرُّفِ فِيهَا، وَلِذَلِكَ نَكَّرَ (ظَاهِرًا)، وَأَمَّا بَاطِنُهَا فَإِنَّهَا مَجَازٌ إِلَى الْآخِرَةِ، وَوَصْلَةٌ إِلَى نَيْلِهَا وَأَتَمُّوْجٍ لِأَحْوَالِهَا، وَإِشْعَارًا بِأَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ عَدَمِ الْعِلْمِ وَالْعِلْمِ الَّذِي يَخْتَصُّ بِظَاهِرِ الدُّنْيَا" (15).

وكانت غفلتهم عن الآخرة بكثرة شغلهم بالدنيا مع إفلاسهم في أمور الآخرة، وبغفلتهم عن قدرة الله على البعث والجزاء وذهولهم عن أهوال القيامة، وغفلتهم عن دنو الحساب وقربه (16).

إذن فالغفلة عن الغيب مهلكة، فمن يغفل عن الآيات ودلالاتها، في الآفاق أو الأنفس أو آيات الهداية، يحجب عن ربه فلا يشعر بحضوره، ثم ينكفي على الدنيا فلا وجود للآخرة ولا استعداد، بل اطمئنان بالدنيا ورضى بها.

فهذه هي الغفلة عن الغيب في حياة الإنسان، ولها آثار سيئة على حياته.

### - آثار الغفلة عن الغيب من خلال القرآن الكريم:

إذا كان الإنسان غافلاً عن الغيب فكيف ستكون حياته ؟ يذكر القرآن الكريم في ذلك آثاراً سلبية للغفلة، على الفرد وعلى المجتمع:

#### 1- آثار الغفلة عن الغيب على الفرد:

أبرز آثار الغفلة عن الغيب على الفرد هي تَوَقُّف القلب والعين والأذن عن الشهود، وإذا توقفت تلك الوسائل عن عملها فقد استوى الغافل مع الأنعام، بل إن الأنعام أقلّ ضلّالاً منه، فهو الغافل الضال. يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: آية 179].

يقول ابن عاشور: "ومعنى نفي الفقه والإبصار والسمع عن آلائها فيهم، أنهم عطّلوا أعمالها بترك استعمالها في أهمّ ما تصلح له، وهو معرفة ما يحصل به الخير الأبدي، ويدفع به الضرّ الأبدي... وتشبيههم بالأنعام في عدم الانتفاع بما يتفّع به العقلاء، فكأنّ قلوبهم وأعينهم وآذانهم قلوب الأنعام وأعينها وآذانها، في أنها لا تقيس الأشياء على أمثالها، ولا تتفّع ببعض الدلائل العقلية؛ فلا تعرف كثيراً مما يفضي بها إلى سوء العاقبة" (17).

والمعرفة لا تتم إلا بهذه الوسائل، فإذا تعطلت لم تتم المعرفة، وضل المرء عن السبيل.  
يقول ابن عطية: "ثم بين قوله (أولئك هم الغافلون) الطريق الذي به صاروا  
أضلّ من الأنعام، وهو الغفلة والتقصير" (18).

ومما يوضح توقّف هذه الوسائل عند الغافل قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ  
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ  
غَافِلُونَ﴾ [الروم: آيات 6-7]

فقد غفل هؤلاء عن الآخرة، فتوقّف علمهم عند ظاهر من الحياة الدنيا، وهذا  
الظاهر منها هو معاشهم، ما يصرفون فيه حياتهم الآنية. يقول الخازن: "يعلمون ظاهراً  
من الحياة الدنيا، يعني أمر معاشهم كيف يكسبون ويتجرون ومتى يغرسون ويزرعون  
ويحصدون" (19).

والتعبير بظاهر الحياة يوحي بجهلهم بباطنها، بل إنّ جهلهم يزداد ليصل إلى  
جهل كثير من ظواهر أخرى للدنيا وينحبس علمهم في ظاهر قليل من ظواهرها،  
وهل هذا إلا الضلال ! فلهذا ارتباط الدنيا بالآخرة وبقومية إله حكيم.  
ويتطور هذا الجهل بتوقّف وسائل المعرفة إلى العلم بظاهر من ظواهر الدنيا،  
وفي هذا المعنى يقول ابن عجيبة: "وتنكير (ظاهراً) يفيد أنهم لا يعلمون إلا ظاهراً  
واحداً من جملة ظواهرها" (20).

إلى أن تشكّل تلك الغفلة غطاءً يمنع من الشهود، وهو ما سيرفع يوم  
القيامة: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ  
ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعْدِ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ لَّقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ  
هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾. [ق: آيات 19-22].

يقول السمعاني: "كشفنا عنك ما غشيك وغطى سمعك وبصرك وعقلك،  
حتى لم تسمع ولم تبصر ولم تعقل الحق" (21).

فضلالة إلى جهل ضدّ العلم، إلى جهالة ضدّ الحلم والأدب، وذلك أتباع الهوى، لأنّ بقاء الغافل دون شهود يجعله بلا إحساس وشعور بالمصلحة الدائمة والنافع الدائم، وهذا ما يدفعه إلى أتباع ما يهوى قلبه وما تُسوّل له نفسه.

والغافل الذي لا يشهد عالم الغيب ويغفل عن الآخرة، يتوقّف علمه عند ظاهر الحياة الدنيا، فيغيب عنه إدراك مصالحه، والحكمة من وجوده، ويجهل انتظام الخلق، ولزوم الآخرة، ولا يشهد وجود الخالق المقدّر، فيكون مجال عمله هو مجال علمه، فيسعى لنيل رغباته وإشباع شهواته، وذلك هو أتباع الهوى.

يقول تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: آية 28]. ويقول الطباطبائي: "واتباع الهوى والإفراط من آثار غفلة القلب، ولذلك كان عطف الجملتين على قوله (أغفلنا) بمنزلة عطف التفسير" [22].

فيبقى الإنسان في الجهالة، فلا يتأدّب ولا يعمل على تربية نفسه والسعي نحو الكمال المقدّر له، وهذا ظاهر ممن لم يدرك الغاية من وجوده ولا السبيل للقيام بتلك الغاية.

والوقوف عند ظاهر من الحياة الدنيا يدفع إلى الاشتغال بها والوقوف عندها والاستجابة لإغرائها، وهذا هو الإخلاق إلى الأرض، والرضا بالحياة الدنيا والاطمئنان بها. وإذا تحقّق ذلك لم يَرُجُ الغافل غيرها، ولو كان لقاء ربّه الذي مكنّ له في الأرض. وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأْنَنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾. [يونس: آية 7].

يشرح أبو السعود معنى الرضا والاطمئنان، وعلاقتها بعدم رجاء لقاء الله فيقول: "والمراد بعدم الرجاء عدم التوقع مطلقاً، المنتظم لعدم الأمل وعدم الخوف، فإنّ عدمهما لا يستدعي عدم اعتقاد وقوع المأمول والمخوف، أي لا يتوقعون الرجوع إلينا أو لقاء حسابنا المؤدّي إمّا إلى حسن الثواب أو إلى سوء العذاب، فلا يأملون الأول وإليه أشير بقوله عزّ وجلّ ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾. فإنّه منبئ عن إثارة



الأدنى الحسيس على الأعلى النفيس... ولا يخافون الثاني وإليه أشير بقوله تعالى ﴿وَاطْمَأْنُوا بِهَا﴾، أي سَكَنُوا فيها سَكُونٌ مَنْ لَا بَرَّاحَ لَهُ مِنْهَا، آمِنِينَ مِنْ اعْتِرَاءِ المزعجات، غيرَ مُخْطَرِينَ بِبَاحِهِمْ مَا يَسُوؤُهُمْ مِنْ عَذَابِنَا... سَكَنُوا إِلَيْهَا مُكَبِّينَ عَلَيْهَا قَاصِرِينَ مَجَامِعَ هِمَمِهِمْ عَلَى لَذَائِذِهَا وَزَخَارِفِهَا مِنْ غَيْرِ صَارِفٍ يَلْوِيهِمْ وَلَا عَاطِفٍ يَشِيهِمْ. وإِثَارُ الْبَاءِ عَلَى كَلِمَةِ (إِلَى) -المنبئة عن مجرد الوصول والانتهاء- للإيذان بتمام الملازمة ودوام المصاحبة والمؤانسة" [23].

فالرضا بالدنيا والاطمئنان بها متحقق وثابت، (باستعمال صيغة الماضي) وعدم رجائهم للقاء الله مستمرّ متجدّد (باستعمال صيغة المضارع)، إشارة إلى ذلك التردّد بين الدنيا والآخرة فيقطع كلّ مرّة بعدم رجاء الآخرة. وخلاصة هذه الصفات: أنّ الغفلة راسخة فيهم ومستمرّة ودائمة، وقد تحقّق رضاهم بالدنيا واطمئنائهم بها، وكلّما تردّد في سمعهم لقاء ربهم جدّدوا عدم رجائه.

ويتحوّل عدم رجاء الآخرة إلى استحباب للدنيا على الآخرة بمعنى اختيارها، وينتج عنها الكفر، كفر بقلائه تعالى، ثم شرح الصدر بالكفر بالله الخالق المنعم. فالغافل عن الآخرة، والمنحسب في ظاهر من ظواهر الدنيا لم يتفكّر في نفسه ولا في الآفاق- إذ لم يؤمن بها- وتؤدّي ذلك إلى اليقين بالله تعالى ولزوم اليوم الآخر، بل إنّه لاستحبابه لذلك الظاهر من الدنيا قد يكفر بقاء ربهم.

يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ [الروم: آية 8].

ثمّ إنّه أكثر من ذلك قد يشرح الصدر للكفر برّبّه، يقول تعالى: ﴿وَلَكِن مِّن شَرِّحٍ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [النحل: آيات 106-108].

وهذا هو تامّ الغفلة، حيث طبع على قلبه وسمعه وبصره. يقول ابن الجوزي: "في المشار إليه — (ذلك) قولان أحدهما: أنه الغضب والعذاب... الثاني: أنه شرح الصدر للكفر، (واستحبوا). بمعنى: أحبوا الدنيا واختاروها على الآخرة" [24].

ويستج عن اتباع الهوى انفرط أمر الغافل، وهو ما يذكره الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: آية 28].

والأمر الفرط مأخوذ من معنى الانفرط والضياع والاختلال، يقول القرطبي: «قيل هو من التفريط الذي هو التقصير وتقدم العجز بترك الإيمان، وقيل من الإفراط ومجاوزة الحد... وقيل: فرط أي قدما في الشرّ، من قولهم فرط منه أمر أي سبق» [25].

فهو ميل إلى اليمنة أو اليسرة، فلا توسط ولا اعتدال، بل تطرّف وانفرط. ومن ذلك نزول الغافل إلى درجة الأنعام في معيشته، والأنعام ليس لها من شغل إلا الأكل والشرب والسفاد، والمعنى أنه نزول إلى البهيمية وفقد كرامة الإنسان وتكريمه على الخلق. يقول تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: آية 179].

يقول القرطبي: "أي هتّمهم الأكل والشرب، وهم أضلّ لأنّ الأنعام تبصر منافعها ومضارها وتبّع مالكةا، وهم بخلاف ذلك" [26]. ويقول أبو السعود: بـ"أنّ" مشاعرهم متوجهة إلى أسباب التعيش مقصورة عليها" [27].

ويقول رشيد رضا: "أولئك الموصوفون بما ذكر من الصفات السلبية كالأنعام؛ من إبل وبقر وغنم، في كونهم لا حظّ لهم من عقولهم ومشاعرهم إلا استعمالها فيما يتعلّق بمعيشتهم في هذه الحياة الدنيا، بل هم أضلّ سبيلا من الأنعام؛ لأنّ هذه لا تنجي على أنفسها بتجاوز سنن الفطرة وحدود الحاجة الطبيعية في أكلها وشربها ونزواتها، بل تقف فيه عند قدر الحاجة التي تحفظ بها الحياة الشخصية والنوعية، وأمّا عبيد الشهوات من الناس فهم مسرفون في كلّ ذلك إسرافا... دع الجناية على الأخلاق والآداب وعلى الأمم والشعوب" [28].

فإذا نزل مستوى الإنسان إلى مستوى الأنعام لم يصلح للخلافة في الأرض ولم يكن في مقام التكريم والرفعة، بل كانت حياته سعيًا وراء المتع وإشباعًا للغرائز الحيوانية.

## 2- آثار الغفلة عن الغيب على المجتمع:

وآثار الغفلة على المجتمع كثيرة منها التكبر في الأرض وما ينتج عنه من استضعاف وظلم وتعدّ، واختلال نظام الجماعة، وذلك ما ينتج القضاء على هذا المجتمع وزواله، واستخلاف غيره عليه، ثم الويل والخسران في الآخرة.

فقد ذكر تعالى بأنّ من أوصاف الغافلين التكبر، يقول تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: 146].

والتكبر في الأرض بغير الحقّ نذير بظهور الطبقية وانتشار التعدي والظلم، واتّساع الفوارق بين أهل المجتمع الواحد، وبروز طبقة المستضعفين، وهذا ما يؤذن بخراب الحياة الاجتماعية.

يقول ابن عاشور: "المعنى أنهم يعجبون بأنفسهم، ويعتدون أنفسهم عظماء فلا يأثمرون لآمر، ولا ينتصحنون لناصح... [و] إن يدركوا الشيء الصالح لم يعملوا به، لغلبة الهوى على قلوبهم، وإن يدركوا الفساد عملوا به لغلبة الهوى" [29]. وهذا من افراط الأمر المؤدي إلى زوال المجتمع واستخلاف غيره بدله [30].

ثم إنّ الغافلين في الأخير هم الأخسرون، وسيدعون يوم القيامة بالويل والثبور على أنفسهم لظلمهم أنفسهم وظلمهم الآيات أن يشهدوها. يقول تعالى: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ إِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: آيات 97-98].

فقد اعترف الغافلون بأنهم كانوا ظالمين في غفلتهم، فكان مصيرهم النار وبئس المصير.

يقول الطبري: "وهم يقولون يا ويلنا قد كُنا قبل هذا الوقت في الدنيا في غفلة من هذا الذي نرى ونعاین، ونزل بنا من عظیم البلاء... (بل كنا ظالمین) يقول مخبراً عن قیل الذین كفروا یومئذ: ما كنّا نعمل لهذا الیوم ما ینجینا من شدائده، بل كنّا ظالمین بمعصیتنا ربّنا، وطاعتنا إبلیس وجنده فی عبادة غیر الله عز وجل" [31].

#### — فرعون وقومه نموذج للغافین عن عالم الغیب:

ضرب الله تعالى نماذج واقعية للغفلة والغافین، وأثر ذلك فی حیاتهم، ومن أبرز الأمثلة على ذلك فرعون وقومه، وغفلتهم عن الآيات والابتلاء المتكرر: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِّينَ وَتَقْصُ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيِّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتَانَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لَتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفْصَلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: آيات 130-133].

فقد بعث الله إلى فرعون وقومه سيدنا موسى عليه السلام، إقامة للحجة وإبعاداً للاعتذار بالغفلة، كما هي سنته تعالى مع الخلق: ﴿لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ [يس: آية 6]. فغفل فرعون وقومه عن الآيات التي بعثها الله إليهم.

#### — الابتلاء:

يقول أبو حيان: "الأخذ التناول باليد ومعناه هنا الابتلاء... وهذه سيرة الله في الأمم يتليها بالنقم ليزدجروا ويتذكروا بذلك ما كانوا فيه من النعم، فإنّ الشدة تجلب الإنابة والخشية ورقّة القلب والرجوع إلى طلب لطف الله وإحسانه... رجاء لتذكّركم وتنبههم على أنّ ذلك الابتلاء إنما هو لإصرارهم على الكفر وتكذيبهم بآيات الله فيزدجروا" [32].

والابتلاء سنة الله في التذكير، وتحضر بصفة خاصّة عند الغفلة— كما يدلّ على ذلك مواضع ذكر الغفلة في آيات القرآن—، لعلّ الغافل ينتبه ويتفطن،

وذلك لأنَّ الشدَّةَ والحاجة تزيل ذلك الغشاء على الأبصار، ويتوجَّه القلب إلى فطره فيذكره ويتضرَّع إليه، وكأنَّ سَنَةَ الابتلاء تستنطق الفطرة فتتطرق وتجي في قلب الغافل.

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ﴾ [يونس: آية 12].

يقول أبو حيان: "بَيَّنَّ شِدَّةَ افتقار الناس إليه واضطرارهم إلى استمطار إحسانه مسيئهم ومحسنهم، وأنَّ من لا يرجو لقاء مضطرٍّ إليه حالة مسِّ الضرِّ له، فكلُّ يلجأ إليه حينئذ ويفرده بأنَّه القادر على كشف الضرِّ" [33].

كما أنَّ الابتلاء ليرجع المسيء، يقول تعالى في بني إسرائيل: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّمَّنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: آية 168]. وفي فرعون وقومه نفس السَنَةِ أيضا.

ومع هذا فالله تعالى يعهل برحمته، فلا يأخذ كلَّ امرئ بما كسب، بل يدع له فرصة الرجوع والتذكر: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: آية 61].

ووعده تعالى صادق، سواء كان بالنصر: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الروم: آية 6]. أو بالعذاب والإهلاك: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [الأنعام: آية 134].

وإن لم يرجع الغافل ويتفطن، فهو استدراج لا إهمال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: آية 42].  
- شِدَّةُ الابتلاء:

فكان أن أرسل الله على فرعون وقومه آيات مفصَّلة ابتلاء وإعذارا، بعد آيات موسى عليه السلام السابقة: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: آية 133].

يشرح الرازي معنى الآيات المفصلات، فيقول: "مبينات ظاهرات، لا يشكل على عاقل أنها من آيات الله التي لا يقدر عليها غيره... فُصِّلَ بين بعضها وبعض بزمان، ليمتحن فيه أحوالهم، وينظر أيقبلون الحجة والدليل ؟ أم يستمرون على الخلاف والتقليد" [34].

كما ضرب الله النماذج الواقعية لمن شهد آياته، وأتبع سبيل الرشد، قدوة في الطريق، فيذكر الله تعالى بني إسرائيل إذ صبروا وآمنوا بالله، واستعانوا به، في مقابل فرعون وآله الذين كذبوا وغفلوا: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: آية 128].

لكن فرعون وقومه اشتغلوا عن دلالة الآيات والابتلاء وعن نموذج الصالحين من بني إسرائيل الشاهدين، فركزوا على أن الآيات التي جاء بها موسى عليه السلام ليست إلا سحرا ومكرا ضدهم: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لَتَسْحَرْنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ فَاَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: آية 132].

وأنتج هذا رفضها وعدم الإيمان به، وإن ظهر لهم ما ظهر من اختصاصهم بالابتلاء دون غيرهم، ولو استدعى الأمر أن يعثوه بالإيمان حتى يكشف عنهم سحره لفعّلوا: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لِئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْغَوَةِ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ﴾ [الأعراف: آيات 134-135].

فهم بهذا قد اشتغلوا عن النظر في الآيات ودلالاتها بهذا الظنّ وما سيؤول إليه أمرهم إن تحقّق. يقول رشيد رضا: "كانوا غافلين عما تقتضيه [الآيات] وتستلزمه من عذاب الدنيا والآخرة، إذ كانت في نظر أكثرهم من قبيل السحر والصناعة، وكانوا قد بلغوا فيها الغاية، ولذلك كانوا يكابرون أنفسهم في كلّ آية، ويحاولون أن يأتي سحرهم وعلماءؤهم بمثلها، ويحملون عجزهم على تفوّق موسى عليهم فيها" [35].

## - آثار الغفلة:

وكان من أبرز آثار الغفلة فيهم، ظهور الطبقية والاستكبار والاستضعاف ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الفصص: آية 4]، وبسط فرعون لوصايته على الناس ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: آية 29]، بل إعلانه نفسه ربًّا أعلى لقومه ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: آية 24]، ثم استدلال بني إسرائيل وقتل الذكور واستحياء النساء.

وانخرم نظام مدينتهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتُلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: آية 15].

فنبى الله موسى عليه السلام قد دخل المدينة في زمن وُصِفَ بأنه حين غفلة، وهو وقت يشغل الناس فيه، يقول ابن عاشور: "وحيث الغفلة: هو الوقت الذي يغفل فيه أهل المدينة عما يجري فيها وهو وقت استراحة الناس وتفرقهم وخلو الطريق منهم. قيل: كان ذلك في وقت القيلولة، وكان موسى مجتازا بالمدينة وحده، قيل ليلحق بفرعون إذ كان فرعون قد مر بتلك المدينة، والمقصود من ذكر هذا الوقت الإشارة إلى أن قتله القبطي لم يشعر به أحد" (36). ومدينة يحدث فيها الشجار والخصام، والاعتقال والقتل، في غفلة من أهلها مدينة بلا نظام ولا أمن ولا استقرار، ولو أن الناس في شغل، فلا ينبغي أن يغيب النظام فلا ينتصر لمظلوم، ولا يحمي الإنسان حتى يقتل فيستفيق الناس.

فاتباع الهوى لا يورث إلا سعيًا حثيثًا وراء الشهوات، فيخرج أمر الغافل من الاعتدال إلى الفرط؛ إفراطا أو تفريطا، ويترل من مرتبته إلى درجة الأنعام، فينكب عن الرشد؛ أي رشد، ويقبل على الغي ويلزمه. ولا ينتج عن هذا إلا التظالم والتعدي، ويقضي على الحياة الاجتماعية ويودي بهلاك المجموعة ودمارها.

## - العقوبة:

وكان ذلك بداية النهاية، تبعاً لسنن التدافع بين المجتمعات، لتكون النهاية إغراقاً وانتقاماً بعد انفراط الأمر، ثم استخلاقاً للآخرين، يقول تعالى: ﴿فَأَنتَقِمْنَا مِنْهُمْ فَآغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: آية 136]. فبعد أن قامت الحجّة عليهم؛ وظهر إصرارهم على الكفر، وبعد ابتلائهم لعلهم يرجعون؛ ولم يزدهم ذلك إلاّ فراراً، جاء وعده بعد إهمال. فأغرق الله تعالى فرعون وجنده، ودمّر ما كان يصنع وقومه، وأورث بني إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها، وهذا هو نفس مآل الغافلين ولو بعد حين.

يقول ابن عاشور: "الانتقام افتعال، وهو العقوبة الشديدة الشبيهة بالنقم؛ وهو غضب الحق على ذنب اعتداء على المنتقم يُنَكَّرُ ويكره فاعله... وكان إغراقهم انتقاماً من الله لذاته لأنهم جحدوا انفراد الله بالألوهية، أو جحدوا ألوهيته أصلاً، وانتقاماً أيضاً لبني إسرائيل لأنّ فرعون وقومه ظلموا بني إسرائيل وأذلّوهم واستعبدوهم باطلاً" [37].

وهذا الانتقام كان بالإغراق مع فرعون وقومه، وكان بأنواع أخرى من العذاب؛ مثل الريح، وبالصيحة والخسف مع غيرهم: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: آية 40]. وقد يكون الانتقام بصور وأشكال أخرى.

ويأتي مع هذا الانتقام استخلاف المستضعفين والأمم الأخرى، لتتمّ دورة أخرى وينظر تعالى ماذا يفعلون، ويدمّر تعالى ما صنع الغافلون وما عرّشوا. يقول تعالى عن بني إسرائيل بعد فرعون وقومه: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: آية 137].

وقد سمّاه تعالى ميراثاً، ليشير إلى الحلول مكان السابقين، فيكون ذلك ابتلاءً للآتين هل يكونون مثل من خلّفوهم.



يقول ابن عاشور عن الإرث إنّه: "مماثلة الحي ميتا في صفات كانت له؛ من عز وسيادة... [و] خلافة المنقرض" [38].

ومن الانتقال إلى إزالة كلّ ما يُمْتُّ إلى المهلكين بصلة، فيدمّر كلّ ما صنعوا، وما رفعوا من عرش وشيدوا: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: آية 137].

يقول عبد الرحمن حبنكة: "أصل التدمير تحطيم الشيء على وجه لا يُرجى بعده إصلاحه، ويكون تدمير كلّ شيء بحسب ما يلائمه" [39]. ويقول ابن عاشور في دلالة كلمة (يعرشون): "يعرشون استعارة لقوة الملك والدولة" [40].

والمقصود هو زوال أمة وحلول أمة أخرى بدلا عنها، تسكن أرضها، وتشهد ما حدث لها، فإمّا أن تلتزم، وإمّا أن يحقّ بها مثل ما حاق بسابقتها، ولعذاب الآخرة وعقوبته تعالى للغافلين أكبر.

#### - فرعون آية:

ومع قصّ قصص فرعون وقومه، وضرب المثل في الغفلة وما يلزم عنها، يترك الله تعالى لنا نموذجا حيا تراه الأعين والأبصار، آية من آيات الأنفس وهو نجاة فرعون بيدنه لا بروحه، ليكون عبرة، فقد أعلن فرعون أنّه الربّ الأعلى، فلما أغرق اعترف أنّه لا إله سوى الله، فيجيبه المولى عزّ وجلّ حينها: ﴿قَالِ يَوْمَ تُنْجِيكَ بِيَدِنَا لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس: آية 92]. يقول النسفي في معنى الآية: "(لمن خلقك) لمن يأتي بعدك من القرون، ومعنى كونه آية أن يظهر للناس عبوديته، وأنّ ما كان يدّعيه من الربوبية محال، وأنّه مع ما كان عليه من عظم الملك آل أمره إلى ما ترون، لعصيانه ربّه، فما الظنّ بغيره!" [41].

ويقول المراغي في معنى الآية: "وإنّ كثيرا من الناس لفي غفلة عن حججنا وأدلتنا على أنّ العبادة له وحده خالصة، فهم يمرّون عليها وهم عنها معرضون، فلا

يتفكرون في أسبابها ونتائجها وحكم الله فيها. وفي ذلك إيماء إلى ذم الغفلة، وعدم التفكير في أسباب الحوادث وعواقبها، واستبانة سنن الله فيها للعظة والاعتبار<sup>[42]</sup>.

فجعل سبحانه فرعون آية للناس ليَقِفُوا عند العبر ويستفيدوا من تلك التجربة، ويتعرفوا على سنن الله تعالى في الأنفس والمجتمعات.

#### - خاتمة:

لعلّ من أبرز نتائج الدراسة ما يأتي:

- الغيب حاضر مع عالم الشهادة، ممثلاً في حضور الله تعالى وقيوميته، وآيات الآفاق والأنفس والهداية الدالة عليه وضرورة اليوم الآخر وثبوتها، والشعور بالغيب يجعل الحياة حياة كاملة، تجمع في الماضي والحاضر والمستقبل، وتجعل المصاحح حقيقية فيقدم الإنسان الدائم على الزائل، والنافع على الضار.

- الغفلة عن الغيب في حياة الإنسان له أثر سلبي جداً على حياته.

- إن الوقوف عند عالم الشهادة يجعل الإنسان يجهل هذه الحياة أصلاً، ولا يقف إلا عند ظاهرها، فلا تصلح حياته، بل سيقى حبيس لحظته ووضعها، لا يرقى به إلى أحسن بل يرضى بوضعه سلبياً كان فيقنط أو إيجابياً كان فيطغى.

- تنوّعت آثار الغفلة عن الغيب على الفرد: كالجهل والغنى، وإتباع الشهوات، وانقراط الأمر وصولاً إلى إنكار الآخرة ووجود الله تعالى ووحدانيته، والوقوف عند الدنيا رضي بها فلا يرجو غيرها، واطمئناناً بما فلا يخشى تحوّلها.

- كما تنوّعت آثار الغفلة عن الغيب على المجتمع: كاختلال نظام الجماعة، وظهور التكبر والاستضعاف، والتفرقة، وصولاً إلى دمار المجتمع وزواله واستخلاف غيره.

- ضرب الله تعالى لنا في القرآن نموذجاً بارزاً للغفلة عن الغيب وأثرها في حياة الفرد والمجتمع، وهو فرعون وقومه، بما يعين على الوقوف على السنن ومعرفة النتائج فنجنب الأسباب المؤدية إليها، كما ترك الله لنا نموذجاً واقعياً تبصره العين وهو فرعون أيضاً آية للاعتبار به، ولكن أكثر الناس عن آياتنا لغافون.

## - الهوامش والإحالات:

- [1] ابن سيده علي بن إسماعيل، المحكم والمخيط الأعظم، تحقيق عبد الحميد هندراوي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000م، ج5، ص529.
- [2] المصدر ذاته، ج5، ص529.
- [3] الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دط، دار ومكتبة الهلال، د.م. ج1، ص419. وينظر: ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر ودار بيروت، بيروت، 1956م، ج11، ص497-498.
- [4] محمد تمزغين، الغفلة في آيات القرآن الكريم، ط1، جمعية التراث، غرداية، 2008م، ص30.
- [5] ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتوير، د ط، الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب، تونس والجزائر، 1984م، ج9، ص185.
- [6] المصدر ذاته، ج12، ص204.
- [7] ينظر: محمد تمزغين، الغفلة في آيات القرآن الكريم، ص65.
- [8] محمد عبده ومحمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم المشهور بتفسير المنار، تحقيق إبراهيم شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 1999م، ج11، ص267.
- [9] ابن عاشور، التحرير والتوير، مصدر سابق، ج11، ص98.
- [10] ابن عجيبة، أحمد بن محمد، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، تحقيق عمر أحمد الراوي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002م، ج4، ص495.
- [11] الفخر الرازي، محمد بن عمر، مفاتيح الغيب، ط2، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1997م، ج5، ص345.
- [12] يسمى الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي كتابه القيم في إثبات وجود الله ووحدانته: "كبرى اليقنيات الكونية" إشارة إلى هذا المعنى.
- [13] القطب اطفيش، أحمد بن يوسف، تيسير التفسير، تحقيق إبراهيم طلاي، ط1، المطبعة العربية، الجزائر، 2000م، ج5، ص228.
- [14] الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، مصدر سابق، ج7، ص457.
- [15] البيضاوي، عبد الله بن عمر بن محمد، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دط، دار الجيل، بيروت، د ت، ص534.

[16] ينظر بتوسع: الحكمي، إبراهيم علي ولي، آيات الغفلة والنسيان في القرآن الكريم، جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية، مكة، السعودية، إشراف البدري عاطف علي محمد، 2002م، ص 81-91.

[17] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج 9، ص 183-184.

[18] ابن عطية، عبد الحق بن غالب الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز، تحقيق المجلس العلمي بفاس، دط، المغرب، 1979م، ج 7، ص 240.

[19] الخازن، الخازن، علي بن محمد بن إبراهيم، لباب التأويل في معاني التنزيل، ضبط عبد السلام محمد علي شاهين، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995م، ج 3، ص 387.

[20] ابن عجيبة، البحر المديد، مصدر سابق، ج 5، ص 331.

[21] السمعاني، منصور بن محمد بن عبد الجبار، تفسير القرآن، تحقيق ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، ط 1، دار الوطن، الرياض، 1997م، مج 5، ص 241.

[22] الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ط 2، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1973م، ج 15، ص 303.

[23] أبو السعود، محمد بن مصطفى، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، وضع حواشيه عبد اللطيف عبد الرحمن، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1999م، ج 3، ص 214-215.

[24] ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، زاد المسير في علم التفسير، تخريج أحمد شمس الدين، ط 2، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002م، مج 2، ج 4، ص 379.

[25] القرطبي، محمد بن أحمد، الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، صححه: هشام سمر البخاري، د ط، دار عالم الكتب، الرياض، 2003م، مج 5، ج 10، ص 392.

[26] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، مج 4، ج 7، ص 324-325.

[27] أبو السعود، إرشاد العقل السليم، مصدر سابق، ج 3، ص 56.

[28] محمد عبده ورشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم، مصدر سابق، ج 9، ص 355.

[29] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج 9، ص 104-106.

[30] سيأتي ذكر نموذج عن الغافلين وبيان أثر ذلك على مجتمعاتهم.

[31] الطبري، محمد بن جرير، أبو جعفر، جامع البيان في تأويل آي القرآن، ط 3، دار الكتب العلمية، بيروت، 1999م، مج 9، ص 88.

[32] أبو حيان، محمد بن يوسف، الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، اعتنى به زهير جميد، د ط، دار الفكر، بيروت، 1992م، ج 5، ص 146-147.

- [33] أبو حيان، البحر المحيط، مصدر سابق، ج6، ص20.
- [34] الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، مصدر سابق، ج5، ص346.
- [35] محمد عبده ورشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم، مصدر سابق، ج9، ص82.
- [36] المصدر ذاته، ج20، ص88.
- [37] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج9، ص74-75.
- [38] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج9، ص26-27.
- [39] الميداني، جبنكة الميداني، عبد الرحمن حسن، معارج الفكر ودقائق التدبر، ط1، دار القلم، دمشق وبيروت، 2000م، مج4، ص519.
- [40] ابن عاشور، المصدر ذاته، ج9، ص79.
- [41] النسفي، عبد الله بن أحمد، أبو البركات، مدارك التبريل وحقائق التأويل، دط، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، دت، مج2، ص36.
- [42] المراغي، أحمد مصطفى، تفسير المراغي، دط، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دت، ج10، ص151-152.

#### – المصادر والمراجع:

1. ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، جمال الدين أبو الفرج، زاد المسير في علم التفسير، تخريج أحمد شمس الدين، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002م.
2. ابن سيده علي بن إسماعيل، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق عبد الحميد هندائي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000م.
3. ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، د ط، الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب، تونس والجزائر، 1984م.
4. ابن عجيبة، أحمد بن محمد، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، تحقيق عمر أحمد الراوي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002م.
5. ابن عطية، عبد الحق بن غالب الأندلسي، الخور الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز، تحقيق المجلس العلمي بفاس، دط، المغرب، 1979م.

6. ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر ودار بيروت، بيروت، 1956م.
7. أبو السعود، محمد بن مصطفى، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، وضع حواشيه عبد اللطيف عبد الرحمن، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 1999م.
8. أبو حيان، محمد بن يوسف، الأندلسي الغرناطي، البحر المحيط في التفسير، اعتنى به زهير جعيد، د ط، دار الفكر، بيروت، 1992م.
9. البيضاوي، عبد الله بن عمر بن محمد، الشيرازي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دط، دار الجيل، بيروت، د ت.
10. حبنكة الميداني، عبد الرحمن حسن، معارج التفكير ودقائق التدبر، ط1، دار القلم، دمشق وبيروت، 2000م.
11. الخازن، علي بن محمد بن إبراهيم، البغدادي، لباب التأويل في معاني التنزيل، ضبط عبد السلام محمد علي شاهين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995م.
12. السمعاني، منصور بن محمد بن عبد الجبار، تفسير القرآن، تحقيق ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، ط1، دار الوطن، الرياض، 1997م.
13. الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ط2، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1973م.
14. الطبري، محمد بن جرير، أبو جعفر، جامع البيان في تأويل آي القرآن، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، 1999م.
15. الفخر الرازي، محمد بن عمر بن حسين، القرشي أبو عبد الله الرازي، مفاتيح الغيب، ط2، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1997م.
16. الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين، تحقيق مهدي الخزومي وإبراهيم السامرائي، دط، دار ومكتبة الهلال، د م.
17. القرطبي، محمد بن أحمد، الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، صححه: هشام سمير البخاري، د ط، دار عالم الكتب، الرياض، 2003م.

18. القطب اطفيش، أحمد بن يوسف، تيسير التفسير، تحقيق إبراهيم طلاي، ط1، المطبعة العربية، الجزائر، 2000م.
19. محمد عبده ومحمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم المشهور بتفسير المنار، تحقيق إبراهيم شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 1999م.
20. المراغي، أحمد مصطفى، تفسير المراغي، دط، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دت.
21. النسفي، عبد الله بن أحمد، أبو البركات، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، دط، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، دت.
22. محمد تمرغين، الغفلة في آيات القرآن الكريم، ط1، جمعية التراث، غرداية، 2008م.
23. الحكمي، إبراهيم علي ولي، آيات الغفلة والنسيان في القرآن الكريم، جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية، مكة، السعودية، رسالة ماجستير، إشراف النبدري عاطف علي محمد، 2002م.